اسم الدرس : تفسير سورة الأعراف (١٥) | الآيات [١٣٨ : ١٤٤]

تصنيف الدرس : مجلس تفسـيـر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، نستكمل بإذن الله -عزَّ وجل- مجالس تدبر سورة الأعراف، أظن هذا المجلس الخامس عشر.

كنا توقفنا عند قوله -سبحانه وتعالى- آية ١٣٨ {وَجاوَزنا بِبَني إِسرائيلَ البَحرَ فَأَتَوا عَلى قَومٍ يَعكُفونَ عَلى أَصنامٍ لَهُم قالوا يا موسَى اجعَل لَنا إِلهًا كَما لَهُم آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُم قَومٌ تَجهَلونَ} [الأعراف:١٣٨]

بدأت مرحلة جديدة في دعوة سيدنا موسى عليه السلام بعد مواجهة فرعون وبعد مواجهة الطاغوت، انتقل موسى عليه السلام إلى مواجهة أمراض النفس البشرية حينما ينزل عليها الوحي، الوحي حينما ينزل يأمر هذه النفس بالطاعة وينهاها عن أشياء... فتتمرد هذه النفس!

هذه النفس التي ترفض وترى أنَّ الطاعة قيد فترفض هذا القيد. فانتقلت الآيات إلى جهد سيدنا موسى عليه السلام في مواجهة هذه النفس، لذلك ممكن أن نسمي هذا المقطع من بعد هذه الآية "ماذا بعد سقوط فرعون"؟

كثير من الناس يظن أن بسقوط فرعون سندخل الجنة، دورنا هو إنهاء مُلك فرعون وبمجرد حدوث التمكين انتهت رحلة المعاناة ورحلة البذل والمجهود.

يظنون أن الأمل كله في التمكين، وكأن التمكين هو الغاية وليس هو الوسيلة لتعبيد النفس وتعبيد الناس لله! فالغاية العظمى تعبيد الناس للملك -سبحانه وتعالى-، حينما تتحول الوسائل إلى غايات حينما مثلًا يتحول الجهاد إلى مجرد غاية ليس لإعلاء كلمة الله -سبحانه وتعالى-.

لذلك أخبرنا النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه لا بد من ضبط كل مجهود لنصرة الدين أن يكون في سبيل إعلاء كلمة الله -سبحانه وتعالى- (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[١].

فماذا بعد سقوط فرعون؟

كان هناك درس بعد ٢٥ يناير- الثورة- بنفس العنوان، كنا مصدقين، وكان وقتها -بعد الثورة مباشرة- تجد الجدال انتقل مباشرة للأحكام الشرعية، وما الدليل على كذا؟!، والشريعة لا تصلح للتطبيق!...تغير الكلام مباشرة، أي طوال فترة الاستضعاف لا أحد يتكلم في هذه القضية، وبمجرد ما بدأ الناس يشعروا بقليل من الحرية وقليل من التمكين تجد مباشرة الطعن في أحكام الشريعة!

[١] - [عن أبي موسى الأشعري:] قالَ أَعْرابِيٌّ للنبيِّ صَلّى اللهُ عليه وسلَّمَ: الرَّجُلُ يُقاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، والرَّجُلُ يُقاتِلُ لِيُذْكَرَ، ويُقاتِلُ لِيُرى مَكانُهُ، مَن في سَبيلِ اللَّهِ؟ فَقالَ: مَن قاتَلَ، لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هي العُلْيا، فَهو في سَبيلِ اللَّهِ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣١٢٦ • [صحيح] •

يرفضون أن يطيعوا الله -عزَّ وجل-، وهم سكتوا على طاعة فرعون، أي هم يتكلمون الآن، الآن يذهبون لموسى يقولون {اجعَل لَنا إِلهًا كَما لَهُم آلِهَةٌ}[الأعراف:١٣٨] فالشاهد أن هذا شوط مهم جدًا لمعالجة النفس التي تعتقد أن بمجرد حدوث التمكين ينتهي كل شيء، وأن زمن المجاهدة والبذل والتضحية انتهى، ويتمنى يا ليتني كنت أعيش في زمن عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه-، وكأن هذا الزمن ليس فيه مجاهدة!

وكأن مسألة تطبيق الشرع أو مجاهدة النفس لتطبيق مراد الله -سبحانه وتعالى- انتهت بمجرد حدوث التمكين، هذا فهم خاطئ.

أيضًا كان بعض المفسرين ألمح أن السبب أن بني إسرائيل كانوا يبحثون عن الحرية وكانوا ينتظرون موسى عليه السلام لمجرد التخلص من فرعون لا لإقامة الشريعة.

أي أن السبب هو الثأر، الانتقام، الخروج من الطاغوت أو من جبروت فرعون، لا ينتظرون موسى عليه السلام حُبًا في نصرة الدين فيبحثون عن نصرة الدين، فتجد دائمًا أن **الذي لا ينصر الدين في زمن الاستضعاف لا ينصره -غالبًا- في زمن التمكين.**

فأنت عبد مطالب بتطبيق شرع الله -عزَّ وجل- في أي وقت، فتجد أن الذي يسعى لتطبيق شرع الله -عزَّ وجل- على نفسه، على من حوله في أي وقت هو الذي يُستعمَل حينما يأتي التمكين، ويستمر على طاعة الله -عزَّ وجل-.

فبنو إسرائيل تعاملوا مع سيدنا موسى وتعاملوا مع الرسالة وبعثة موسى عليه السلام أنه مجرد مُخلّص فقط، حتى أفعل ما أريد، أنتقل من عبودية فرعون إلى عبودية الهوى وعبودية النفس!

وهذا ما حدث في الغرب بعد التخلص من سلطان الكنيسة الظالمة انتقلوا من هذا السلطان الظالم إلى سلطان الهوى وسلطان النفس، وأنشأوا رمز تمثال الحرية، والبروتستانت هم المعترضين، المحتجين، الرافضين لأي أحد له سلطان عليهم، فأصبحوا يعبدون هواهم !

لأن الإنسان ضعيف وفي فطرته أنَّه يعبد... فإن لم يعبد الله -سبحانه وتعالى- عبد غيره، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تعس عبد الدينار)[٢] ، فليس ضروريًا أن المعبود يكون شيئًا محسوسًا أو ممكن أن تكون فكرة، فكرة المال والهوى، يظل عبدًا لها.

---

[٢] - [عن أبي هريرة:] تعسَ عبدُ الدِّينارِ، وعبدُ الدِّرْهَمِ، وعبدُ الخميصَةِ، تعسَ وانتَكَسَ وإذا شيكَ فلا انتَقَشَ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح ابن ماجه ٣٣٥٣ • صحيح • أخرجه البخاري (٢٨٨٧) باختلاف يسير، وابن ماجه (٤١٣٦) واللفظ له

فالشاهد أن هذا الجزء مهم جدًا من أول {وَجاوَزنا بِبَني إِسرائيلَ}[الأعراف:١٣٨] أنت تعتقد أنَّ هؤلاء الذين صبروا على الاستضعاف والتعذيب والتشريد وذاقوا أشد أنواع وأصناف وصنوف الألم والتعذيب، تعتقد أنهم بمجرد أن يشعروا بقليل من التمكين كما أخبر رَبُنا -سبحانه وتعالى- عن أهل الإيمان {الَّذينَ إِن مَكَّنّاهُم} بمجرد أن يُمكَّنوا {إِن مَكَّنّاهُم فِي الأَرضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَروا بِالمَعروفِ وَنَهَوا عَنِ المُنكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الأُمورِ} [الحج:٤١] كما أخبر رَبُنا -سبحانه وتعالى- في سورة الحج، فتُفاجَأ بهذه النفسية العجيبة في التعامل مع آيات الله -سبحانه وتعالى-.

لذلك أول آية بدأت بعد قوله -سبحانه وتعالى- {وَدَمَّرنا ما كانَ يَصنَعُ فِرعَونُ وَقَومُهُ وَما كانوا يَعرِشونَ *وَجاوَزنا بِبَني إِسرائيلَ البَحرَ} بعدها مباشرة {فَأَتَوا عَلى قَومٍ يَعكُفونَ عَلى أَصنامٍ لَهُم قالوا يا موسَى اجعَل لَنا إِلهًا} [الأعراف:١٣٧,١٣٨] كما ذكرنا في المرة الماضية هناك أناس ينقضون العهد بمجرد الخروج من مرحلة الضيق! أي أنه في منتصف البحر وبمجرد ليس النزول إلى الشاطئ، بل بمجرد الاقتراب من الشاطئ والشعور بالأمان يكفر وينقض عهده مع الله -عزَّ وجل-، فالمسألة مهمة جدًا -هذا الجزء-.

والعجيب أن عادة القرآن -أظن أنا ذكرت هذا في أول درس في سورة الأعراف- ،عادة القرآن حينما يذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون يكتفي القرآن المكي بذكر غرق فرعون وإهلاك فرعون، وغالبًا يكون فيه بنو إسرائيل محل ثناء أنهم صبروا على هذا التعذيب وهذا التشريد.

إكمال القصة، ماذا بعد سقوط فرعون؟ غالبًا يأتي في القرآن المدني، لماذا؟ لأن المؤمنين في مكة مستضعفون، فلما كان القرآن يخاطب الواقع، والمؤمنون مستضعفون فيأتيهم القرآن بنموذج لناس أُمِروا بالتوحيد وهم أيضًا في مرحلة الاستضعاف.

فلما انتقل أهل الإيمان النبي -صلى الله عليه وسلم- والصحابة من مكة إلى المدينة، وهو انتقال من الاستضعاف إلى التمكين ذكر لهم -القرآن- ماذا فعل بنو إسرائيل حينما شعروا بالتمكين وكيف أفسدوا حتى لا يسيروا في طريقهم، حتى لا يسيروا على نهجهم، حذّر القرآن المدني من السير خلف نموذج بني إسرائيل في عهد التمكين بعد غرق فرعون.

العجيب أن سورة الأعراف بالرغم أنها مكية، لكن تجد أن القصة -كما ذكرت- تحكي ما بعد غرق فرعون... فالقرآن المكي خرج عن هذه العادة في سورة الأعراف وأيضا في سورة طه، مشهد السامري لغرض معين في سورة طه.

لأن سورة طه {ما أَنزَلنا عَلَيكَ القُرآنَ لِتَشقى} [طه:٢] فتحدثت عن العوامل التي يشقى بها الداعية والتي يمكن أن تؤدي إلى شقائه في الدعوة ومنها وجود هذا الشخص -السامري-، وأن الداعية لا يكون على حذر من وجود هذا الشخص المندس في الدعوة الذي ينقلب على الدعوة بمجرد غياب القائد!

وأظن يوجد خطبة بعنوان "السامري وغياب القيادة".

فالشاهد هنا في سورة الأعراف لأنها سورة تتكلم كما ذكرنا في التفصيل، آيات مفصلات كما ذكرنا المرة الماضية وأحد الأوجه التي قيلت في (آلمص) أنا الله أعلم وأُفصّل، إن سورة الأعراف فيها نوع من تفصيل الآيات حتى نجد إن منَّ الله -عزَّ وجل- علينا ووصلنا لآية {وَواعَدنا موسى ثَلاثينَ لَيلَةً وَأَتمَمناها بِعَشرٍ}[الأعراف:١٤٢] نجد أن حتى الأربعين ليلة مُفصّلة هنا في سورة الأعراف ثلاثين وعشر.

بينما جاءت الآيات في سورة البقرة أربعين ليلة متصلة مع بعضها مجملة، فقال المفسرون جاءت مجملة في سورة البقرة وجاءت مفصلة في سورة الأعراف، هذا يناسب جو تفصيل سورة الأعراف، فاستكمالًا لهذا التفصيل استكملت سورة الأعراف معنا قصة بني إسرائيل بعد إهلاك فرعون.

فقال رَبُنا -سبحانه وتعالى- {وجاوزنا ببني إسرائيل البحر}[الأعراف:١٣٨] إذًا لو أردنا أن نضع عنوانًا من أول هذه الآية يكون: "ماذا بعد سقوط فرعون؟"

المفاجآت التي ستحدث من بني إسرائيل وكيف تعاملوا مع الآيات، وذكرنا أيضًا أن من محاور سورة الأعراف التعامل الخاطئ مع الآيات من المعرضين المكذبين الجاحدين، لكن هل كل مخطئ في التعامل مع الآيات هو كافر جاحد؟ أليس ممكن أن إنسانًا يدعي الإيمان لكن يتعامل تعاملًا خاطئًا مع الآيات؟ نعم هذا ما سنراه مع تعامل بني إسرائيل مع آيات الله -سبحانه وتعالى-، ومع شرع الله -سبحانه وتعالى-، ففي تعامل الكفار مع الآيات، وفي تعامل المؤمنين الغافلين مع الآيات كما سنذكر إن منَّ الله -عزوجل- علينا وأكملنا سورة الأعراف، وذكرت ذلك المرة الماضية أن الغفلة وردت في آخر السورة مرتين.

ختمت سورة الأعراف بذكر الغفلة مرتين: مرة مع المعرضين الكافرين، ومرة مع أهل الإيمان ألا يكونوا غافلين، فيوجد تعامل خاطئ مع الآيات على مستوى الكفار، وتعامل خاطئ مع الآيات على مستوى

المؤمنين، أو ليس تعاملًا خاطئًا لكنه ليس التعامل الأمثل مع الآية، حتى مع النبي نبي الله موسى عليه السلام وكيف تعامل مع كلام الله -عز وجل- له، لا نقول أخطأ حفظًا لمقام النبوة، وسنرى كيف تعامل محمد -صلى الله عليه وسلم- مع إكرام الله -عز وجل- له، وكيف تعامل إبراهيم الخليل عليه السلام، وكيف تعامل موسى عليه السلام، فنجد أن من هذه الآية ماذا بعد سقوط فرعون؟ ما الذي حدث؟

{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ}[الأعراف:١٣٨]

لاحظ الكلام {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ} وليس أجزناهم، "جاوز بـ" كما قال ربنا -سبحانه وتعالى- {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا} [الإسراء:١] هذه باء المصاحبة، أن هذا الطريق لم يكن ليقطعوه بدون معية الله -سبحانه وتعالى- فهذه الباء= با المصاحبة أن الله -عز وجل- كان معهم في هذه الرحلة في البحر.

{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ}[الأعراف:١٣٨] معيته -سبحانه وتعالى- وحفظه وكلأه لهم -سبحانه وتعالى-، حفظهم فقال {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ} أن الله -عز وجل- حملهم.

{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ} وبعدها مباشرة فا المباشرة {فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ ۚ}[الأعراف:١٣٨]

الوقفة الأولى هنا :انظر إلى تقدير الله -عز وجل- كيف وضع هؤلاء الناس في طريقهم ليبتليهم، أحياناً يضع الله -عز وجل- بعض أهل الباطل في طريقك ابتلاءً لك، هل ستتأثر بهم؟ هل ستنكر عليهم؟ كيف ستتعامل؟

أحياناً يحدث العكس، كما وضع الله -عز وجل- الراهب في طريق الغلام أثناء سيره إلى الساحر في قصة غلام الأخدود، وكيف كان الغلام يسير، أرسله أهله إلى الساحر فكان الراهب في طريقه، فكان يمر عليه.

فأحياناً أيضًا السائر في طريق الباطل يقابل بعضًا من أهل الحق ليدلوه على الحق، وتكون رسالة من الله -عز وجل- له، وأحيانًا السائر في طريق الحق يجد بعضًا من أهل الباطل ابتلاءً له.

{فَأَتَوْا عَلَىٰ} أشرفوا عليهم {قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ }[الأعراف:١٣٨] انظر كلمة يعكفون والعكوف فيه معنى الملازمة، والشيء المعكوف أو المعقوف هو الشيء الذي فيه نوع من الانثناء والانحناء... الظهر الذي فيه عكوف فيه نوع من الانثناء، فقالوا ما علاقة الملازمة بهذا الانثناء والانحناء؟ طول الملازمة وكأن الإنسان من طول الملازمة ينثني الظهر وهو ملازم لهذا الشيء، فهذا معنى العكوف.

لذلك فالاعتكاف أن تلازم المسجد، ألا تخرج من المسجد، فانظر أيضًا كلمة يعكفون بصيغة المضارع تدل على مجهود أهل الباطل، وكيف أن أهل الباطل يبذلون {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ}[النساء:١٠٤] ، انظر إلى جهد أهل الباطل في خدمتهم لآلهتهم الباطلة، أفليس أهل الإيمان أولى بذلك؟! أنهم يعكفون على قرآنهم وعلى طاعاتهم.

{فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ} [الأعراف:١٣٨] بعض المفسرين وقف هنا، الإمام ابن عرفة فسر كلمة "لهم" فقال كان ممكن أن الله يقول "فأتوا على قوم يعكفون على أصنام" فلماذا قال {عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ }؟

قال "لهم" أي من صنيعهم، فكأن هناك تسفيه لهذا الفعل، يصنعون الأصنام بأيديهم ثم يعكفون عليها ! فهذه الأصنام من أين أتت؟ هل من السماء؟! بل هم صنعوها بأيديهم، ثم ماذا؟ ثم يعكفون على عبادتها، هل أنت متخيل المشهد؟ تخيل أحدًا يظل يبني صنمًا مثلاً لمدة شهر، وتمر عليه تجده مثلاً نصب خيمة ويبني في الصنم الخاص به، تسأله ماذا تفعل؟ أضبط الصنم الخاص بي لأني أحب الصنم الخاص بي يكون لونه مثلاً فسفوري مثلاً أو يكون لونًا مبهجًا! وبعد أن ينتهي من صنعه يعبده.

هذا كالمنشغل بالمال الذي يسعى لتجميعه ثم يكون عبدًا له! (تعس عبد الدينار وعبد الدرهم)[٣]، وكان حتى بعض الذين يتكلمون في مسألة الانشغال بالمال والتأثر بالحضارة الغربية...، أن أحيانًا الإنسان يكون عبدًا لماله، لا يستطيع أن يتمتع به، أي أنه يعيش عبودية جمع المال ولا يستطيع أن يتمتع به، كانوا يذكرون نماذج كيف أن ناس تحاول أن تعيش مأسورة للمال، تخدم المال، المفترض أنه يجمع المال ليكون زادًا له أو نعيمًا له، ولكنه يعيش في أَسْر وضيق ونكد بسبب هذا المال..!

[٣] سبق تخريجه صفحة٦

الشاهد {يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ} [الأعراف:١٣٨] وبمجرد ما مروا على هذه الأصنام قالوا {يا موسى}، أخيرًا بنو إسرائيل نطقوا، أنت منتظر أنهم ينكرون على فرعون أو يدعون إلى التوحيد.

المرة التي نطقوا فيها في هذه السورة لما قالوا لموسى {قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا} [الأعراف:١٢٩] فياليتهم سكتوا!، ههناك أناس يكون من الأفضل سكوتهم! كان الشيخ يعقوب أظن كان له مثل، يقول أن سيدنا علي بن أبي طالب في لحظة الهجرة نام في فراش النبي –صلى الله عليه وسلم–، فيقول أنا أحيانًا أجد أناسًا أرى أن ثغره في الدين أنه ينام ويسكت، هو يسبب مشاكل فتريد أن تقول له الأفضل أن تسكت.

فالشاهد بنو إسرائيل لما تكلموا قالوا {قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا} [الأعراف:١٢٩] وهنا قالوا {يا موسى}، ينادون على نبي الله موسى، هل مثلا: يا موسى نريد أن نشكر ربنا أن نجانا وأن فرق لنا البحر؟ يا موسى نريد أن نصلي لربنا شكرا على ما فعل بنا وكيف أنقذنا وكيف نجانا وكيف فرق لنا البحر! نريد أن نصوم! نريد أن نفعل طاعات!

قد تتوقع أنهم يقترحون طاعات زيادة فسيدنا موسى يقلل الطاعات ويقول لهم: مهلًا على أنفسكم، ولكن تُفاجأ أنهم طلبوا آلهة !!

{قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا} [الأعراف:١٣٨] ولكن لماذا تريدون إلهًا؟! أي لماذا هم طلبوا إلهًا؟ هل يرون أن دينهم ينقصه إله؟ أو يرون مثلاً أن الإله هذا فكرة محورية مركزية جديدة مهمة؟ أبدًا، إذًا لماذا يريدون إلهًا؟

{كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} [الأعراف:١٣٨] نريد أن نكون مثلهم، هذا هو الغرض والدافع الرئيسي، أن نكون مثلهم ! أي نريد إلهاً كما لهم آلهة، حسنًا ماذا لو كسروا الآلهة؟! نريد أن نكسر آلهتنا كما كسروا آلهتهم، ماذا لو بنوا إلهًا ثانيًا؟ نريد إلهًا ثانيًا، نحن مجرد مقلدون!!!

{كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} [الأعراف:١٣٨] أصبح هذا شعارا، وهو دائمًا شعار الأمة المستضعفة التي عاشت فترة من الذل وتأثرت بهذا الذل، كما قال ابن خلدون وغيره من علماء الاجتماع أن دائمًا الأمة المستضعفة تقلد الأمة الغالبة بدون أن تشعر، ولذلك أنصح بكتيب مهم جدًا للشيخ إبراهيم السكران

-فك الله أسره- اسمه "سلطة الثقافة الغالبة"، مهم جدًا أن الإنسان يكون عنده عزة، ولا سيما في زمن الاستضعاف!

لذلك تعذيب فرعون لبني إسرائيل وشدة ما لاقوه أثر في نفوسهم، وهذه أكبر إشكالية، أن يمر أهل الإيمان ببلاءٍ يغير في نفوسهم فيفقدون هذه العزة؛ أكبر قضية. لذلك من الناس الذين كانوا يتكلمون في مسألة السجون أيضًا علماء النفس وغيرهم قالوا القتل أشد فهو يفجع الناس والأسر، عندما يقتل العائل مثلاً فقتله تدمير لهذه الأسرة! كما تكلمنا في مسألة لماذا فرعون أراد أن يناظر موسى، قال لا السجن يعمل نوعًا من الإذلال النفسي أكثر من القتل، القتل ممكن يتحول -المقتول- إلى بطل إلى رمز.

فمسألة الإذلال الذي كان يقوم به فرعون مع بني إسرائيل أثر فيهم، تعودوا الذل تعودوا الانتظار أن شيئًا يأتي يخرجهم، لذلك حتى لما انتقلوا وأصبحوا أحرارًا ويدعوهم كليم الله للجهاد في سورة المائدة {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ} ويأتيهم بالوعد إن هم طبقوا مراد الله {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ}[المائدة:٢١] هم اعتادوا على {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا}[المائدة:٢٤] نحن اعتدنا أننا ننتظر الحل!

فأحيانًا إكرام الله -عز وجل- لبعض الناس يجعله يعتاد نوعًا من القعود والذلة والمهانة بدلًا من أن يشكر! فقد فرق الله -عز وجل- لهم البحر وأنزل عليهم المن والسلوى فكان هذا العطاء بلاءً لهم جعلهم ينصرفون عن طاعته!

أحيانًا يوجد شخص من كثرة مثلاً ما تكلمه عن رحمة الله كثيرًا فيعمل المعاصي، فأنت تستغرب هل أنت مجنون يا بني، أنا أكلمك عن رحمة ربنا لكي تحمد الله -عز وجل- أن لك إلهًا رحيمًا.

هناك إنسان الكلام معه عن رحمة الله يجعله يزداد في الطاعة حبًا لله! وهناك صنف من الناس "إن أنت أكرمت الكريم ملكته... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا".

فهكذا كان بنو إسرائيل، ولذلك كان الشيخ فريد الأنصاري في كتاب مجالس القران في سورة البقرة كان يقول: "إن شعار بني إسرائيل في الجزء الأول هو التمرد"، يقول شعار بني إسرائيل كان التمرد على طاعة الله، رافضين أي قيود في الشرع، أي قيد يرفضونه.

وهذا كما سماه ربنا –سبحانه وتعالى– هو "الفسق"، فسقت الرطبة:أي أنها ترفض القشرة وتدفعها؛ فتقطع هذه القشرة، ترفض أي غطاء محيط بها، فالشاهد هنا {كما لهم} تدل على هزيمة نفسية استمرت معهم بالرغم من رؤية الآيات.

أخطر شيء –أكرر– أن يمر أهل الإيمان ببلاء يغير في نفوسهم؛ لأن النفس عندما تتغير تُغير الشرع على مراد النفس، الهوى عندما يتحكم فإنه يشرعن الأمور التي يريدها.

أمر خطير جدًا، أن ينجح أهل الباطل في هذا التغيير، لذلك كان بعض الناس حينما تقول اليهود الآن يفسدون العالم، فيقول إن السبب هو فرعون، فرعون أفسد نفسية اليهود، فأنتج هذه النفسية المشوهة، نتجت هذه النفسية المشوهة وسيطرت على العالم، خرجت بأمراض نفسية، **إن الإنسان مهم جدًا أن يحافظ على توازنه النفسي في وقت البلاء**، مهم جدًا –نسأل الله الثبات والعافية–.

{قالوا يا موسى اجعل لنا الها}[الأعراف:١٣٨] لماذا؟ ما المحور المنطلق لديهم؟ {كما لهم} التقليد، وابن عاشور أجاد هنا في مسألة كيف أن الأمة المستضعفة بالرغم من أن معها الحق ومعها الوحي وهي الأفضل ثم يبحثون عن تقليد الناقص! ولذلك سيدنا موسى لما رد عليهم قال لهم من أوجه الردود: {وهو فضلكم على العالمين} [الأعراف:١٤٠] أنتم أفضل!

حينما يقلد أهل الإسلام وهم؛ {كنتم خير امة اخرجت للناس}[ال عمران:١١٠] هم خير أمة، حينما يذهبون ليقلدوا الشرق والغرب في أشياء أتى الوحي بها، ثم يتركون الشرع ويتركون الوحي ويذهبون إلى الشرق والغرب؛ ليقلدوهم!

هذا يدل على هزيمة نفسية منكرة، كما تجد أحيانًا أن القانون الفرنسي مثلًا الوضعي يوجد جزء منه من الفقه المالكي، فبدلًا من أن نأخذ من الفقه المالكي لا نأخذ من القانون الفرنسي الذي أخذ من المذهب المالكي!

أنت لو جئت له بشيء مثلًا في المذهب المالكي وشيء في القانون الفرنسي وهو لا يعرف أنهما متماثلين سيقول نطبق القانون الفرنسي، تقول له وماذا عن المذهب المالكي؟ –قبل أن يعرف رأي المذهب المالكي– يقول لا الفرنسي (صنع في فرنسا) أكيد سيكون أحسن بكثير، نعم هذه أشياء في

الشرع، نحن لا نتكلم الآن عن ركوب سيارة، نحن نتكلم في حكم شرعي، هو أصبح مهزومًا نفسيًا في كل شيء.

طبعًا لا ننكر أنهم تقدموا دنيويًا عنا، هذا من البديهيات وأنا لا أنكر أن نستفيد منهم دنيويًا، أنا لا أنكر هذا بدليل أني لم أترك الطب.

أنا أتكلم في مسألة أنه أصبح لدينا أمة مهزومة نفسيًا **ومن أوجب الواجبات التي لا بد أن يراعيها المصلحون في هذا الوقت زرع الثقة بالوحي وبالشرع مرة أخرى!** أي قتل هذه الهزيمة النفسية وبث روح العزة مرة أخرى عند الناس.

{اجعل لنا إلها كما لهم آلهة}[الأعراف:١٣٨] هذا هو شعار الأمم المستضعفة؛ التقليد بدون تفكير مجرد أننا نريد آلهة كما لهم آلهة، {قال انكم قوم تجهلون}[الأعراف:١٣٨] لا بد من الوضوح، سيدنا موسى واضح وكان يرد ردودًا مباشرة.

لما قال فرعون: {سنقتل ابناءهم}[الأعراف:١٢٧] قام موسى ليرد فقال: {إن الارض لله يورثها من يشاء من عباده}[الأعراف:١٢٨] ، لما قالوا: {اجعل لنا اله كما لهم آلهة}[الأعراف:١٣٨] قام موسى عليه السلام يرد، غياب هذه الردود يؤدي إلى انتشار هذه الفتنة، ويصبح الشعار العام {اجعل لنا الها كما لهم آلهة} شعار التقليد لمجرد التقليد، نريد أن نكون دولة مدنية مثلهم، حسنًا هل أنتم تعرفون ما هي فكرة الدولة المدنية؟ وكيف نشأت؟ لا، ولكن المهم أن نكون مثلهم، لا يهمنا الفكرة.

قال: {إنكم قوم تجهلون}[الأعراف:١٣٨] ، العلماء المفسرون اختلفوا في هذا الطلب هل هو شرك؟ هل هم أرادوا الكفر بالله؟

*وكثير من المفسرين قال إنهم تأثروا بوثنية القبط، بوثنية فرعون وقومه تأثروا بها، وكما قلنا هذا أيضًا من التأثير النفسي، تأثروا نفسيًا بمسألة المذلة والمهانة التي عاشوا فيها، وتأثروا أيضًا بقضية الآلهة فبمجرد ما رأوا أناسًا يعكفون على الأصنام حدث نوع من الانبهار، وأيضًا مسألة الانبهار، أكرر الانبهار بالحضارة الغربية! لا بد أن نعالج هذا الأمر في نفوسنا، أنهم انبهروا بمنظر الآلهة المزخرفة المزينة، ويوجد أناس تعبد وتطوف وتلف، قال أنا أريد مثل هذا، هو ينبهر ويريد أن يقلد بدون فهم أو غرض هو مجرد التقليد.

*وهناك أناس –مفسرون– قالوا لا، هم لم يريدوا الشرك، هم طلبوا أنهم يضيفوا هذا الملمح ويدخلوه في دين موسى، وهذا مال إليه ابن عطية والبغوي، أنهم لم يقصدوا أنهم يريدون أن يكفروا بالله مطلقًا، وكلمة {اجعل لنا إلها} لم يقصدوا أنهم يتركون عبادة الله الذي نجاهم، ولكن أرادوا أن يضيفوا هذا الملمح، يصبح عندنا أصنام في الدين تقربنا إلى الله زلفى، أنهم أرادوا ذلك. أيًّا كان المراد.

لذلك كثير من المفسرين ولا سيما الذي يهتم بالأثر مثل: ابن كثير وغيره ومن قبله –طبعًا الإمام الطبري– يذكرون هنا حديث النبي –صلى الله عليه وسلم– لما كان مع الصحابة في غزوة حنين لما مروا على المشركين كانوا يُعلِّقون –ينوطون– الأسلحة بذات أنواط لهم، شجرة يتبركون بها ويضعون الأسلحة لها، فقال بعض حديثي الإسلام: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، هنا هذا ليس كفرًا، هذا ملمح من بدايات الشرك على حسب اختلاف العلماء ومسألة العذر بالجهل، هذا مبحث طويل هنا في هذا الحديث، هذا ليس ما أتكلم فيه، أنا أتكلم كيف أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قطع هذا الأمر مباشرة، غضب النبي وقال: (إنها سَنَن تتبعون سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، قلتم كما قال بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهًا)[٤].

بالرغم أن هناك ناس فرقوا بين هذا القول وهذا القول، لكن مسألة أن الشرع يحسم هذه المادة، إذا وجد أناسًا يعظمون شجرة يقطع هذه الشجرة، كما روي عن فعل عمر بن الخطاب وإن كان بعضهم ضعف السند لكن كما روي عن فعل عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– مع الشجرة التي بايع النبي –صلى الله عليه وسلم– الصحابة تحتها المذكورة في سورة الفتح.

الشاهد؛ رد موسى عليه السلام قال: {إنكم} يؤكد بثقة، انظر إلى مقابلة الهزيمة النفسية الموجودة عند بني إسرائيل ويقين موسى عليه السلام، والمفارقة بينهما، لذلك لا بد أيضًا أن طرح الداعية يكون فيه ثقة قال: "إنكم" وليس "أنتم"، تأكيد ثقة! {إنكم قوم} كلكم، وليس معنى أني الوحيد المخالف أنني سيحدث لي نوع من الهزيمة أيضًا، أبدًا.

{إنكم قوم} القوم هم الذين يجتمعون، كلمة قوم تأتي كأنهم يقومون على أمر فيه قومة معينة.

---

[٤] - [عن أبي واقد الليثي:] أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمَّا خرجَ إلى خَيْبرَ مرَّ بشجرةٍ للمشركينَ يُقالُ لها: ذاتُ أنْواطٍ، يعلِّقونَ عليها أسلِحتَهم. فقالوا: يا رسولَ اللهِ، اجعَلْ لنا ذاتَ أنْواطٍ، كما لهم ذاتُ أنْواطٍ. فقال النبيُّ ﷺ: سُبْحانَ اللهِ، هذا كما قال قومُ موسى: {اجْعَلْ لَنا إلَهًا كَما لَهُمْ آلِهَةٌ} [الأعراف: ١٣٨]، والذي نَفْسي بيَدِه، لتركَبُنَّ سُنَّةَ مَن كان قبلَكم.
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترمذي ٢١٨٠ • صحيح •

{انكم قوم تجهلون} هذا من جهلكم بالله ! من جهلكم بشرعه وبوحيه {انكم قوم تجهلون} [الأعراف:١٣٨] ، أما هؤلاء وما هم فيه فباطل في الآخرة، باطل لن ينفعهم وفي الدنيا سينتهي {إن هؤلاء متبر ما هم فيه}[الأعراف:١٣٩] مُدمر، التتبير الهلاك والتدمير، أي في الدنيا لن ينفعهم، وإن نفعهم في وقت من الأوقات فلن يستمر معهم، يقين.. سيدنا موسى الآن يتكلم بتأكيدات {إنكم}، {إن هؤلاء متبر ما هم فيه} في الآخرة لن ينفعهم شيئ {وباطل ما كانوا يعملون}[الأعراف:١٣٩].

لا بد أن يكون الإنسان على يقين أن أي مذهب غير الإسلام –مذهب: نسميه مذهبًا كليًا أي له نظرة للحياة كلها، كالرأسمالية أو الشيوعية مثلًا– لا بد للإنسان أن يقول: هذا مذهب باطل وسيسقط! حتى لو هو الآن ناجح.

حدث هزيمة نفسية في وقت انتشار الاشتراكية التي لها أصول شيوعية، أي حدث هزيمة نفسية عند بعض الدعاة، لدرجة أنه أُلف كتاب "الاشتراكية في الإسلام"! إنك تنبهر بالمذهب المنتشر، **انتشار مذهب لا يعني صحته.**

مثل: نظرية التطور، انتشار مذهب ليس معناه أنه منتشر أننا نعتقد أنه صحيح، هذا نوع من الهزيمة النفسية! **فلا بد أن الإنسان يوقن أن هذا في وقت من الأوقات طالما أنه يخالف الوحي في أصول كلية فهذا مذهب باطل في الدنيا وفي الاخرة!**

قلة قليلة التي تثبت في وقت الأزمة، فلما انهارت الشيوعية وسقط الاتحاد السوفيتي بدأوا يقولون فعلًا الشيوعية اتضح أنها باطل! الآن الرأسمالية هي التي تصعد فالناس تخاف أن تنتقدها، يقول كيف أنتقد الرأسمالية!

لا بد أن نبين هذا العوار الموجود في الرأسمالية لا بد أن يظهر ذلك للناس، وأن يقال هذا بثقة! لا بد من ثبات هؤلاء العلماء، وثبات المصلحين في وقت الفتنة أمر مهم جدًا.

كما فعل المصلحون –أولو العلم– مع قارون {قال الذين أوتوا العلم ويلكم} في قمة الانبهار بقارون قالوا: {ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا}[القصص:٨٠] كان ثباتًا مهمًا جدًا، الكل يعرف الحقيقة بعد {فخسفنا به وبداره الأرض}[القصص:٨١] بعد السقوط الكل يعترف!

{إن هؤلاء متبر}[الأعراف:١٣٩] وقالوا التبر هو الكسارات التي تبقى من الذهب الذي يتكسر، أي أن ما هم فيه مجرد زخرف سينكسر، {إن هؤلاء متبر ما هم فيه} لأنهم منغمسون فيه، {وباطل} الباطل الذي لا يأتي بخير، لا ينفع.

{وباطل ما كانوا يعملون}[الأعراف:١٣٩] هذا مذهبهم هم، أما أنتم {قال أغير الله ابغيكم إلها}[الأعراف:١٤٠] هل أنتم تشعرون بنقصٍ في دينكم حتى تبحثون عن تكميلٍ له من غيره! كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه متسائلًا متعجبًا مستنكرًا لهم: {فما ظنكم برب العالمين}[الصافات:٨٧]! أظننتم فيه النقص حتى تبحثون عن الكمال في غيره!

قال ربنا -سبحانه وتعالى- {اليوم} -عن الإسلام- {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا}[المائدة:٣] أفبعد أن أتمه الله وأكمله ورضيه لنا نبحث عن غيره!

هل نظن في الشرع النقص حتى نبحث عن تكميل له من غيره من خارجه؟! فموسى عليه السلام قال {أغير الله أبغيكم إلها}[الأعراف:١٤٠] أطلب لكم إلهًا، لماذا؟! ألم يُنجيكم؟! ألم ينقذكم من فرعون؟!

{أغير الله أبغيكم إلها} وبالرغم من ذلك {وهو فضلكم على العالمين}[الأعراف:١٤٠] أي: أنتم أفضل منهم فكيف تبحثون عن تقليد ناقص؟! فهي ليست مسألة غير شرعية مثلًا عندكم فيها نقص فتكملونها وهذا أمر عادي، ممكن ومباح في الشريعة، بل أحيانًا يتوجب على بعض الناس، أي: لو الأمة الإسلامية تحتاج لتكميل أمر دنيوي من غيرها حتى لو من أمة كافرة فلا حرج في ذلك، فهو يقول لهم: {وهو فضلكم على العالمين}[الأعراف:١٤٠] تبحثون في مسألة العقيدة عند هؤلاء!

لذلك بعض العلماء توقف في مسألة كيف "العالمين"؟ هل هم فضلوا على الأمة الإسلامية؟ فقال هذا -كما الإخوة الأفاضل ذكروا- أن في توقيت بني إسرائيل هم كانوا أفضل ناس في العالم.

وقيل: {فضلكم على العالمين} المقصود فضلكم بالآيات التي رأيتموها، أنتم رأيتم آيات لم ولن يراها أحد من العالمين! رأيتم انفلاق البحر والعصا، رأيتم آيات لم ولن يراها أحد، حتى المسلمين رضوا بالوحي أما أنتم رأيتم الآيات!

أكثر أمة أتتهم رسل بنو إسرائيل، وأكثر أمة أعرضت وقتلت وأعرضت عن الرسل بنو إسرائيل! حتى تم استبدال بني إسرائيل تمامًا. فالشاهد؛ {وهو فضلكم على العالمين}[الأعراف:١٣٨] أنتم أفضل.

عجيب جدًا أن الإنسان مثلًا ينبهر بالفلسفة الغربية، ينبهر وفي أمور تصادم الشرع صدامًا كُليًا! وليس مثلاً في جزئية فرعية وهو يريد أن يتجاوزها، يتعجب الإنسان!

لذلك لا بد من طرح الشرع طرحًا قويًا على الناس فيه عزة، وتبيين هذا الجمال وهذه المحاسن التي توجد في الشريعة!

{قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين}[الأعراف:١٤٠] ثم ذكَّرهم بالنعم {وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم}[الأعراف:١٤١] هنا حدث أمرٌ عجيبٌ جدًا، وأنت تقرأ الكلام في الآيات المفترض أن سيدنا موسى يكلم قومه، ولكن {وإذ أنجيناكم} من المتكلم هنا؟ الله -عز وجل- {أنجيناكم} هنا الفاعل الله -عز وجل- {أنجيناكم} هو الذي نجاهم -سبحانه وتعالى-.

فأحيانًا يحدث في القرآن في أكثر من موطن وهذا في سورة العنكبوت وفي سورة طه، في أكثر من موطن يكون المتكلم نبيًا ثم أثناء السياق يتكلم الله -عز وجل-، فقالوا هذا دلالة أن الله -عز وجل- يرضى هذا القول، وأن موسى يبلغ مراد الرب تمامًا، فإكمال الآيات بسياق أن الله -عز وجل- هو الذي يتكلم وكأن موسى عليه السلام يبلغ مراد الرب -سبحانه وتعالى-.

{وإذ أنجيناكم من آل فرعون}[الأعراف:١٤١] أي: أنتم لم تجف أقدامكم بعد! بعض المفسرين -وإن كانت الأسانيد واهية- ولكن يذكر أنه ذهب يهودي لسيدنا علي بن أبي طالب قال له: اختلفتم -يقصد مع بعض الصحابة لما اجتمعوا في ثقيفة بني ساعدة- اختلفتم ونبيكم مات ولم يجف ماؤه، أي: لم تدفنوه بعد واختلفتم، فقال -علي- وأنتم طلبتم الآلهة ولم تجف أقدامكم! أنتم عبرتم البحر لتوكم.

ولذلك أكرر مسألة أن الناس تظن دائمًا أن بمجرد تحقق التمكين أو الحرية الإنسان سيكون على أكمل وجه، وحتى على المستوى الشخصي! هو معتقد ويقول أنا لو لا يوجد امتحانات في الحياة -بما أننا في امتحانات التيرم- أنا سأكون أحسن إنسان في الدنيا، أنا سأكون صوامًا قوامًا، أنا الذي يعطلني في الحياة كلها الامتحانات!

حقًا فعلاً؟! أنت تحتاج أن تقرأ قصة بني إسرائيل، يقول لو لا يوجد وظيفة وعمل.. يا رب أتخلص من الوظيفة، أتعرف لو تخلصت من الوظيفة كنت سأتعبد عبادة كثيرة!

دائمًا الذي يعطل بذله للدين أو الطاعة على الظروف غالبًا لا يعمل شيئًا عندما تتغير الظروف، أنت مطالب أن تطيع الله -عز وجل- في هذه الظروف، هذا هو بلاؤك أن تقدم الطاعة في هذا الوقت هذا هو المطلوب منك!

كثرة الاقتراحات على الله -عز وجل- على القدر هذا لا يفيد شيئًا.

فالشاهد؛ {وإذ أنجيناكم} أي: أنتم خرجتم من البلاء لتوكم {وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب}[الأعراف:١٤١] أنسيتم؟ أنسيتم البلاء؟! {يسومونكم سوء العذاب} يسومونكم:

يطلبونكم، سوء العذاب، يحيطونكم بالعذاب، {يسومونكم سوء العذاب ويقتلون} تجد أن التعبير هنا يستعمل ألفاظًا شديدة {سوء العذاب}، {يقتلون} حتى يذكرهم بالبلاء التفصيلي.

أتذكرون؟ {يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم}[الأعراف:١٤١] دائمًا كلمة {وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم} متكررة في الأعراف والبقرة وإبراهيم، **والخلاف ما بين أهل العلم هل البلاء هنا بمعنى ابتلاء أم نعمة؟**

لو قالوا نعمة {وفي ذلكم} أي: وفي إنجائكم نعمة عظيمة، الذي قال بلاء بمعنى ابتلاء أي: وفي تعذيب فرعون لكم، القولان موجودان في كل السور البقرة والأعراف وسورة إبراهيم.

{وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم}[الأعراف:١٤١] فالذي اختار أن البلاء هنا بمعنى النعمة أي وفي هذا الإنجاء بلاء عظيم، فتخيل عندما أقول إن التمكين بلاء عظيم! هل أنت متخيل؟ أنا أريدك أن تتخيل أننا مُكنا غدًا صباحًا في فلسطين، تخيل أن غدًا المسلمين سيطروا على فلسطين، ما الذي سيحدث؟

بعد غدٍ سيقسموا المسجد أربع أرباع كل واحد يأخذ ربعًا وسيقتلون بعض إلى أن يتبقى ربع واحد فيأتي الآخرون -الأعداء- ويأخذوه مرة أخرى فيسيطرون على المسجد الأقصى مرة أخرى!

التمكين.. إحساس الإنسان أنه حر يجعل النفس تطغى! خروج من طغيان فرعون إلى طغيان النفس! القرآن هنا ينتقل نقلة من محاربة طغيان فرعون إلى محاربة طغيان النفس التي ترفض الشرع ترفض ذلك.

{يسومونكم سوء العذاب ويقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء} على القولين في {وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم}[الأعراف:١٤١].

ثم قال ربنا -سبحانه وتعالى-: {وواعدنا موسى ثلاثين ليلة}[الأعراف:١٤٢] ، حقيقة هذه الآيات آيات تجعل الإنسان يتهيب هذه الآيات! فهي تحتاج إنسانًا عنده إيمانيات عالية -مثل الشيخ خالد الراشد مثلًا فك الله أسره- يشرح هذه الآيات، تحتاج شخصًا عنده قلب!

معانٍ رائعة في هذه الآيات، تحتاج أنك تغلق على نفسك وتظل تردد هذه الآيات وتعيش هذه اللحظات مع موسى عليه السلام، هذا الميقات ميقات المحبين ميقات المشتاقين!

{ولما جاء موسى لميقاتنا}[الأعراف:١٤٣] ، هذه الآيات تحتاج إلى قلب ولا تحتاج إلى فكر، تحتاج إلى قلب يتلقى هذه الآيات! بعيدًا عن زحمة الحياة والاختلاط بالناس، كما فعل موسى عليه السلام وترك كل الناس في أعظم اللحظات؛ لحظات النصر.

وكما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- وصلى ثمان ركعات لفتح مكة سواء قيل إنها الضحى أو لخلافه في {إذا جاء نصر الله والفتح (١) ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً(٢)} فأنت تنشغل بالله

{فسبح بحمد ربك} لست منشغلًا بدخول الناس أنت منشغل بالله {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا(٣)}[سورة النصر] فهنا {وَوَٰعَدنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيلَة}[الأعراف:١٤٢]

هذا الوعد متى كان؟ قيل إن الله -عز و جل- في أول مرة كلم موسى عليه السلام فيها، في هذه اللحظة الرائعة، حينما يكلم الله -عز و جل- موسى وكلمه كلامًا، نُثبت صفة الكلام لا ننكرها -كما فعل المعتزلة أو الأشاعرة الذين أولوا النص وقالوا المقصود الكلام النفسي-، نُثبت صفة الكلام.

وسمع موسى هذا الكلام من الله -عز و جل- في هذه اللحظة، في أحسن اللحظات في حياة سيدنا موسى، فوعده الله -عز و جل- إن أتم هذه المهمة التي هي إخراج بني إسرائيل من فرعون ومواجهة فرعون، إن أتم هذه المهمة وعده أن يكلمه مرة أخرى ليعطيه التوراة، فكان موسى عليه السلام ينتظر هذه اللحظة.

{ثُمَّ ءَاتَينَا مُوسَى ٱلكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِي أَحسَنَ} في آخر سورة الأنعام[اية:١٥٤] ، كنت ذكرت الخلاف في مسألة ما معنى {تماما على الذى أحسن}؟ ومن معانيها: أي أن الله -عز وجل- أتم النعمة على موسى لأنه أحسن في أداء هذه المهمة فتمت عليه النعمة وكلمه الله -عز وجل- وآتاه التوراة، كتب له التوراة بيده وآتاه التوراة -سبحانه وتعالى-.

{وواعدنا موسى}[الأعراف:١٤٢] فكان ينتظر هذه اللحظة، الله -عز وجل- وعده بإيتائه التوراة بعد إهلاك فرعون، لكن موسى عليه السلام بمجرد الإهلاك تعجل ذلك وترك قومه وتعجل؛ لذلك لما سأله ربنا -سبحانه وتعالى- في سورة طه {وَمَا أَعجَلَكَ عَن قَومِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُم أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلتُ إِلَيكَ رَبِّ لِتَرضَىٰ (٨٤)} هنا ملمح العجلة و التعجل وأنه جاء ذكره مرتين في سورة طه {وَلَا تَعجَل بِٱلقُرءَانِ}[اية:١١٤] و {وَعَجِلتُ إِلَيكَ رَبِّ لِتَرضَىٰ}[اية:٨٤] هذا غير موجود هنا في سورة الأعراف، فلماذا ذُكرت العجلة مرتين في سورة طه؟

لكن هنا -في الأعراف- سيدنا موسى أتى على الموعد {وواعدنا} لذلك حتى كثير من المفسرين توقف كثيرًا عند المسألة لأن في قراءة أخرى {ووعدنا} لكن في قراءة حفص {وواعدنا} فقالوا إن المفاعلة تكون من طرفين مع أن الموعد كان من الله -عز وجل-، الذي ضرب الموعد الله -عز وجل-.

فقيل هل لأن موسى عليه السلام كان ينتظر هذا الموعد فكأنه توجد مشاركة في هذا الفعل؟ أو واعدنا بمعنى وعد؟

{وَوَٰعَدنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيلَة وَأَتمَمنَٰهَا بِعَشر فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَربَعِينَ لَيلَة}[الأعراف:١٤٢] لنا هنا وقفات مع هذه الآية:

الوقفة الأولى: بعض أهل العلم حاول -أظن أنه المهايمي في التفسير وهذا أحد الذين ينقل عنهم الإمام القاسمي وإن كان هو متصوف- حاول أن يربط ما علاقة طلب بني إسرائيل -طلبهم للآلهة- و أن يأتي بعدها مباشرة أن سيدنا موسى يذهب للقاء ربه؟ حاول أن يربط.

بعضهم ربط الرابط المعروف وهو الرابط الزمني أن هذا حدث بعد هذا، لكن أشار إلى ملمح جيد قال: إن هؤلاء فعلوا ذلك لأنهم غفلوا عن تزكية نفوسهم فذكر الله -عز وجل- نموذجًا لتزكية النفس وهو من أعلى الناس سيدنا موسى كليم الله -عز وجل-.

وكأن هذا الملمح -تزكية النفس- لا يتخلى عنه إنسان أبدًا! أن ينعزل الإنسان عن المجتمع وعن الناس ليخلو بربه وبعبادته وبذكر الله -سبحانه وتعالى- هذا أمر لا يستغنى عنه أحد، بل كثير من الأخطاء التي يمكن أن يقع فيها الإنسان تكون بسبب انشغاله عن العبادة!

كثير من الناس ينظر لمسألة الخلوة والعبادة أنها تعطيل، تعطله ولا ينظر على أنها الزاد، أشبه بسيارة تسير في طريق وقائدها يرفض أن يقف لتموينها بالبنزين، تقول له أن يُزوِّد السيارة بالبنزين فيقول هذا تضييع وقت، وهو بهذه الطريقة ستتوقف منه السيارة!

فكذلك الذي لا يريد أن يقوم الليل لفترة ويعطي وقتًا لقيام الليل، لذكر الله -سبحانه و تعالى-، كما قال شيخ الإسلام، -وللأسف كلنا مقصرون في هذا الباب والإنسان يستحيي أن يتكلم في مسألة هو مقصر فيها- كان يقول شيخ الإسلام ابن تيمية هذه غدوتي! يتكلم عن الذكر، هذا زاده.

{إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً}[المزمل:٥] جاءت بعد قيام الليل! أنت تحتاج إلى زاد القيام، كيف تواجه الحياة بدون قيام، بدون معية من الله -سبحانه وتعالى-، بدون خلوة؟!

فموسى عليه السلام احتاج أن يترك بني إسرائيل مرتين، ربنا -سبحانه وتعالى- ذكر لنا في القرآن أنه ترك بني إسرائيل مرتين:

*مرة لأجل لقاء الله -سبحانه وتعالى- وكان فيها وقت للعبادة والخلوة وتلقي الوحي.

*ووقت للعلم لما التقى مع الخضر في سورة الكهف.

هذه الوقفات التي يحتاج إليها المصلح؛ أن يتوقف للعبادة وللعلم فترات معينة لا تطول! لذلك قال ابن عاشور ملمحًا في مسألة لماذا أربعين وليس أكثر؟ سنذكره بإذن الله -سبحانه وتعالى-.

فمسألة أن الإنسان يحتاج إلى فترات التوقف مهما كان! حتى لو كان شيخًا سيظل عبدًا! نحن سيأتينا نموذج في السورة {وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا} -والعياذ بالله- {فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ}[الأعراف:١٧٥] ، {واعبد ربك} ستظل في هذا المقام مقام العبودية حتى أن تموت {حتى يَأتِيَكَ اليقين}[الحجر:٩٩] الموت، هذه أول وقفة.

{وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ}[الأعراف:١٤٢] ذكرنا الرابط الوقفة الأولى.

الوقفة الثانية: مسألة احتياج موسى -عليه السلام- وكل مصلح وكل داعية وكل عامل وعالم يحتاج إلى هذه الوقفات في حياته.

الوقفة الثالثة: أن المقدمة -الأربعون ليلة- كانت لأجل إيتاء التوراة، موسى عليه السلام أتى للميقات ليؤتيه الله -عز وجل- التوراة، ألم يكن ممكنًا أن موسى يأتي يومين ثم يؤتيه الله التوراة؟ لكن أربعين ليلة منعزلًا عن الناس في صيام وذكر وعبادة! وكأن احتياج النفس لتتلقى الوحي تحتاج فترة من التهيئة، لتلقي الوحي، الوحي ثقيل!

{إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً}[المزمل:٥] الوحي كلام ثقيل، ثقيل حتى في نزوله كان يؤثر في جسد النبي -صلى الله عليه وسلم- و يتفصد عرقًا، وليس فقط في النزول، ولكن أيضًا ثقيل في المعاني المطلوبة منك! معانٍ مختلفة عن كل المجتمع، أنت تحتاج أن تنعزل عن المجتمع لتتلقى الوحي حتى لا يتأثر هذا الوحي بأخلاق الناس وعاداتهم.

لذلك شُرع لنا في شهر القرآن الذي هو شهر ماذا؟ شهر رمضان شُرع لنا فيه الخلوة والاعتكاف! أجود ما يكون تلقي الوحي في وقت العزلة، وهذا نفس ما حدث مع النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما تلقى الوحي أول مرة كان في وقت انعزال عن الناس!

ولكن كيف يجمع الإنسان بين مخالطة الناس والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحتى تحصيل المعاش وبين تلقي الوحي؟

فشُرع لنا قيام الليل في هذا الوقت، لذلك قال: {أربعين ليلة} كأن فيها إشارة إلى قيمة الليل، أنت تتلقى الوحي ليلًا ثم تطبق هذا بالنهار، {ويبيتون لربهم سجداً وقياماً}[الفرقان:٦٤] وبعد ذلك إذا خالط الناس {وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً}[الفرقان:٦٣].

لكن لا بد من فترة فيها انعزال عن الناس لتتلقى الوحي تلقيًا صافيًا بعيدًا عن انشغال الذهن! حتى وكأن مسألة غياب الشمس حتى لا ترى كثيرًا من الأشياء في الليل، حتى يتوقف نظرك عن العمل وتتحرك البصيرة ويتلقى القلب في هذا الوقت وقت الليل! الإنسان يحتاج إلى هذه الفترات ليواجه المجتمع لأنه يتلقى معاني ثقيلة، هو مطالب أن يغير هذا الواقع، فإذا تلقى الوحي مع هذا الواقع قد يغير الوحي ليوافق الواقع، لكن **أنت مطالب أن تغير الواقع ليوافق الوحي!**

فمن ضعف الإنسان يحتاج إلى هذه الفترات؛ أن يكون في حالة من البعد عن المشاغل، وللجمع جعل الله لنا قيام الليل، فكيف نجمع؟ بقيام الليل، أن تتلقى الوحي تلقيًا صحيحًا.

ولذلك قال: {إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً}[المزمل:٦] وفيها كلام كثير، ومما قيل كان ذكره أيضًا الإمام القاسمي أي: المعاني المستنبطة التي تنشأ بالليل وفيها تواطؤ القلب مع اللسان؛ لأن

القلب ليس مشغولًا، يفترض ألا ينشغل، لكن "الفيس بوك" و"تويتر" حلوا محل الشمس والنهار والضوضاء عندنا، "السوشيال ميديا" الآن حلت محل هذا الانشغال!

فلا بد أن يخلو الإنسان بنفسه مهما بلغ من مرتبة في العلم والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا بد من هذه الفترات.

{وَوَٰعَدنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيلَة وَأَتمَمنَٰهَا بِعَشر}[الأعراف:١٤٢] حقيقة حاولت أن أبحث في التفاسير لماذا جاءت مفصلة؟ التفصيل يناسب سورة الأعراف، أنها ثلاثون وأتممناها بعشر لكن لماذا جاءت هكذا؟ لماذا قال له ربه أولًا أنت لك ثلاثون ليلة ثم بعد أن انتهى من الثلاثين أتمها الله -عز وجل- بالعشر؟ لماذا؟

أي لماذا لم يقل الله له من البداية أنك ستتلقى التوراة بعد أربعين ليلة؟

لماذا وعد بثلاثين ليلة ثم بعد ذلك جاءت العشر؟

الإسرائيليات كلها على قصة أن سيدنا موسى كان يصوم هذه الليالي وفي آخر الثلاثين قبل أن يعطيه الله الوحي أو التوراة استعمل السواك، تسوك موسى أو أكل من لحاء شجرة وأشهر الروايات الإسرائيلية أنه تسوك فذهبت رائحة الخلوف التي في فمه، تغيرت رائحة الفم نتيجة الصيام فقالت له الملائكة ألا تعلم أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك؟ فأمره الله -عزوجل- بصيام العشر لتعود رائحة الخلوف مرة أخرى، هذه الروايات الإسرائيلية.

لكن كواقع عملي لا أجد لها إسقاطًا على واقعنا.

بعضهم قال لما الإنسان أتم ثلاثين ليلة جدد له مرة أخرى ليدخل العشر بنشاط، فالإنسان أحيانًا إذا توقف -وانفصل- في المنتصف يعود مرة أخرى بحالة من النشاط.

لذلك حدث عندنا نحن في الشرع انفصال بين الثلاثين ليلة التي هي رمضان والعشر ذي الحجة، يوجد مرحلة انفصال معين، أي: نحن لم تأتنا الأربعين ليلة متواصلة، لأن كثيرًا من العلماء قال إن كانت هذه الثلاثين ليلة هي ذو القعدة، والعشرة هي عشر ذي الحجة، فنحن مواسم الطاعة التي عندنا في العام أيضًا أربعين ليلة: ثلاثين في رمضان والعشر من ذي الحجة، فحدث بينهم نوع من الانفصال.

كما ذكرت لكم بحثت كثيرًا في التفاسير ولم أجد قولًا يُشفي غليلي، لعل إنسان يتدبر ويفتح له في هذا المعنى.

{وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة} [الأعراف:١٤٢] ابن عاشور كان أشار للملمح في مسألة أربعين ليلة أن الإنسان لا بد أن يتوازن! إذا كانت هذه الآيات كما ذكرنا توضح احتياج الإنسان للتزكية والخلوة فأيضًا لا ينعزل تمامًا عن الناس، أي أن أكثر من أربعين ليلة قد يؤدي إلى انقطاع عن الناس وكثير من الناس يحدث لهم فساد، أو هو قد يمل!

فلا بد أن يكون الإنسان عنده توازن! لذلك أيضًا كان ذكر الإمام المهايمي في مسألة أنه إذا كانت هذه الآية {وواعدنا موسى ثلاثين ليلة}[الأعراف:١٤٢] جاءت لتبين احتياج الداعية أو المصلح احتياجه إلى الخلوة فلماذا جاءت آية الصعق بعدها؟!

قال لتبين أن مهما بلغ الإنسان في التزكية أنه سيظل بشرًا! لن يصل إلى المرتبة الملائكية، لما طلب سيدنا موسى طلبًا يخالف البشرية في الدنيا هو بإذن الله -عز وجل- في الجنة، رؤية وجه الله، لما طلب هذا الطلب هذا لا يستطيعه بشر في الدنيا فكأن فيه إشارة إلى أن الإنسان سيظل بشرًا مهما بلغ في التزكية وبلغ أعلى المراتب سيظل بشرًا!

أيضًا أشار ابن عاشور لمسألة أربعين ليلة أن الإنسان لا يزيد حتى لا يمل، وأن يكون هناك نوع من فترات التنشيط بين أوقات العبادة.

{وواعدنا موسى ثلاثين ليلة} أيضًا من المعاني التي قيلت في {ثلاثين ليلة ثم أتممناها بعشر}[الأعراف:١٤٢] كما أنها كانت فائدة لموسى كانت ابتلاءً لقومه لأنه وعد موسى أنها ثلاثون ليلة ويعود، فلما غاب موسى عشرة ليالٍ زائدة عن الثلاثين ليلة عبدوا فيها العجل!

لما تأخر موسى عليه السلام فكان ابتلاء ليكتشف موسى عليه السلام هذا الأمر في قومه، أي: أحيانًا يحدث غياب قدري للقيادة للقائد للمصلحين للعلماء.. حينما يغيب هؤلاء تظهر نبتة السوء المختفية كما حدث مع السامري! فكان من ابتلاء الله -عز وجل- لقوم موسى تأخير موسى عليه السلام أنه زاد في العشر.

ولما أراد أن يغيب موسى عليه السلام هذه الأربعون ليلة قال: {وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي}[الأعراف:١٤٢] قاعدة مهمة جدًا للإنسان الذي يقف على ثغر معين من ثغور الدين؛ إذا حدث له طارئ وأراد أن يذهب ليطلب العلم، ليتعبد، لأمر دنيوي.. لا بد أن يقيم مقامه إنسان ولا يترك هذا الثغر فارغًا! يبحث عن بديل!

وهنا أهمية وجود كوادر أخرى تحمل العمل، أن الإنسان يربي من خلفه كوادر تحمل هذا العمل حتى إذا غاب أو تغيب لأمر معين سواء بإرادته أو بغير إرادته، هناك أناس يحملون هذا العمل من خلفه، لا يسقط! ففعل موسى عليه السلام فيه بصيرة قال يا هارون: {اخلفني في قومي}.

فلا بد حينما تقف على ثغر وتترك هذا الثغر لأمر عارض أن تعين من سيقوم بهذا العمل من خلفك.

{قال موسى لأخيه هارون} عيَّن من سيقوم {اخلفني في قومي}[الأعراف:١٤٢] يقوم الخليفة بنفس الوظائف {اخلفني في قومي} ماذا يفعل؟

يقوم بنفس الوظائف، مفاد هذا المقام هو الإصلاح {وأصلح} أي فعل يؤدي إلى الإصلاح لابد أن تفعله! وفقه الإصلاح فقه عظيم، مسألة.. -وهذا باب من أبواب السياسة الشرعية- كيف يصلح الإنسان في قومه؟ أن يراعي، ليس الإصلاح فقط بالشدة وليس الإصلاح فقط باللين!

لذلك مسألة إصلاح الواقع تحتاج إلى حكمة لا إلى علم فحسب، تحتاج إلى حكمة، غياب الحكمة حتى مع وجود العلم أحيانًا يؤدي إلى مفاسد! لا بد للإنسان أن يكون عنده حكمة في الإصلاح، لا يتعجل بالإنكار ولا يتعجل بالسكوت، فالحكمة وضع الشيء في موضعه.

قال {وأصلح} وكأن موسى عليه السلام التقط هذا الملمح من الطيبة عند هارون عليه السلام وأنه لين الخلق وليس في قوة موسى عليه السلام، فأعطاه طريقة أخرى إن لم يستطع مقاومة فساد معين وتغيير هذا الفساد الذي سينتشر، أو أن تغيير هذا الفساد الذي سينتشر ومقاومة هذا الفساد بالقوة قد يؤدي إلى فساد أكبر منه كما ارتأى هارون في مقاتلة من عبدوا العجل مع السامري، ارتأى هارون ألا يقاتلهم حتى لا يحدث فساد أعظم ورأى انتظار موسى عليه السلام وكان اجتهادًا مقبولًا منه عليه السلام، فأشار إليه إن لم تستطع الإصلاح لا تتبع سبيل المفسدين!

أحيانًا الإنسان يعتقد أنه إذا لم يستطع الإصلاح يركب مع المفسدين ويظهر معهم ويكون معهم، هذا أمر خاطئ، فيوجد فارق بين أنك لم تستطع الإصلاح وبين {ولا تتبع سبيل المفسدين}[الأعراف:١٤٢]! ليس معنى أنك لا تستطيع مواجهة الفساد أن تجلس معهم وتظهر معهم وتتصور معهم وتأكل معهم وتتوظف معهم، لا يستقيم ذلك!

ليس معنى أنك لا تستطيع الإصلاح أن تكون معهم، لذلك كان كثير من العلماء ينهى عن الدخول على الحكام الظلمة لأنه غالبًا سيتأثر، فكيف إذا شايعهم وناصرهم وأيدهم، هذا اتبع سبيل المفسدين!

فحينما تنصحه يقول لك أنا لا أستطيع الإصلاح، عدم استطاعة الإصلاح لا تعني اتباع سبيل المفسدين! فقال: {أصلح ولا تتبع سبيل المفسدين}[الأعراف:١٤٢] إن لم تستطع الإصلاح لا تكن مع السامري، لا تحتفل معهم بالعجل! لا تظهر معهم وهم يقبلون هذا العجل، لا تكن معهم {لا تتبع سبيل المفسدين}.

ثم تركه موسى عليه السلام وانتقل إلى عالم آخر، {ولما جاء موسى لميقاتنا}[الأعراف:١٤٣] هذه اللحظات كما قلت لكم هي تحتاج إلى قلب! {ولما جاء موسى لميقاتنا} استحضر هذه الآية وأنت تُكبِّر تكبيرة الإحرام، استحضر هذه الآية وأنت في قيام الليل، استحضر هذه الآية وأنت في خلوتك مع ربك تذكر الله -عزوجل- بغير عدد.

استحضر هذه الآية للمجيء للميقات! لحظات الخلوة {ولما جاء موسى لميقاتنا}[الأعراف:١٤٣] هذه اللحظة التي انتظرها موسى طوال المعركة مع فرعون والصبر وينتظر هذه اللحظة! ويشتاق إليها يشتاق إلى هذا الوعد.

{ولما جاء موسى لميقاتنا} وحدث ما كان يريده {وكلمه ربه}! لحظة أن يكلمه الله، حينما سمع موسى إلى الكلام من الله -عزوجل- بغير واسطة اشتاق إلى رؤيته! لم يستطع موسى عليه السلام كما قال كثير من المفسرين وورد عن بعض السلف أنه لما سمع الكلام اشتاق إلى الرؤية! هل نحن حينما نسمع كلام الله في القرآن نشتاق إلى رؤيته؟! هل حينما نستمع إلى الوحي إلى القرآن نشتاق إلى رؤية الله الملك -سبحانه وتعالى-؟!

{ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه}[الأعراف:١٤٣] لم يقل (وكلمه الله) هنا الآن ربه علاقة خاصة بينه وبين الله! هكذا أنت في صلاتك!

أريدك أن تستشعر حينما تقوم في بيتك حتى لأداء قيام الليل أو أداء السنن في البيوت حينما تقوم وتصلي وسط الأهل والأسرة والأب والأم والزوجة والأولاد ثم تنفصل وتقول (الله أكبر!) مشهد عجيب! الأولاد يلعبون من حولك والأم والأب والكل يتكلم وأنت تكبر وتقول: {الحمد لله رب العالمين}[الفاتحة:٢] وتستحضر حمدني عبدي!

أنت لست معهم الآن، إذا نادى عليك الطفل أنت لا تجيب لأنك لست معه الآن أنت بين يدي الله! هذا المشهد لا بد أن تستحضره في عبادتك، أن تأتي إلى ميقات ربك {إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا}[النساء:١٠٣] هناك ميقات تأتي إليه في الصلاة، لا بد أن تعظم هذه الصلاة، هذا اللقاء.

{وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ}[الأعراف:١٤٣]، لم يستطع موسى أن يتمالك نفسه وطلب هذا الطلب، {قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ} فأخبره الله -عزَّ وجلَّ- كما في الروايات قال: يا موسى لا يستطيع البشر أن يراني، وإنه إذا رآني البشر مات لا يستطيع، فقال: "يا رب لأن أراك فأموت أحب إلي من أن أعيش ولا أراك". الله أكبر! هذه معانٍ تهون على الإنسان أي بلاء في الدنيا، كيف يعيش إنسان بدون لذة كلامه! بدون لذة انتظار رؤية وجهه -سبحانه وتعالى-، كيف يعيش إنسان هذا؟ أي في هذه الحياة بدون هذه المعاني التي تصبره!

قال: "يا رب لأن أراك فأموت"، وما قيمة حياة وأنا لا أطمع في رؤياك، "لأن أراك فأموت أحب إلي من أن أعيش ولا أراك" لذلك قال له: {لَنْ تَرَانِي} أي: في الدنيا.

{قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ}[الأعراف:١٤٣] أنت تسمع ولكن أريدك أن تقرأ الآية كأنك تقرأها لأول مرة.

محمد قطب في الدارسات القرآنية في المقدمة، أشار كيف أنه كان وهو طفل له علاقة مع هذه الآية، وكيف حينما كان يسمعها كل مرة يقول: "كل مرة أقرأ هذه الآية، وكأني أنظر إلى الجبل وأتساءل هل سيثبت الجبل؟! هل سيرى موسى ربه؟" هذه هي المعايشة؛ أن تكون جزءًا من الآية، أن تعايش الآية، تختلط الآية بلحمك ودمك فلا تنساها أبدًا، حتى لو نسيت كلمة أو لفظة منها لا تنسى معناها، فهو اختلط بقلبك، كما أنك لا تنسى أباك وأمك، لا تنسى معاني هذه الآيات.

{قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ} [الأعراف:١٤٣]، للأسف قد شوش علينا المعتزلة هذه الآية، أدخلونا في قصص وجعلوا أهل السنة يردون عليهم، عندما تقرأ في التفاسير تشعر أنك خرجت لجو آخر في خلاف عقدي كلامي، لما أنكروا -المعتزلة- رؤية وجه الله، أنكروها تمامًا في الآخرة، حتى كثير قال: "عاملكم الله بما تريدون" عفا الله عنهم، لذلك فلهم فضل أيضًا وإن كانوا ابتدعوا في هذه الجزئية.

فالشاهد؛ أنك ستجد أن التفاسير هنا خرجت فأنت لا تخرج عن معايشة الآية، أي ادرس هذا المبحث في العقيدة، مبحث ثبوت رؤية وجه الله -عزَّ وجلَّ-، ورؤيته ثابتة ثبوتًا متواترًا بالأحاديث وبالقرآن، فلا تنشغل بذلك.

لكن كلمة "لن" التي جعلت الزمخشري يقول: إن "لن" تفيد التأبيد، فعندما يقولون: لا فيها مد، أما "لن" أنت حتى في النطق تنقطع، فقالوا: تفيد معنى القطع، فـ "لن" تفيد القطع حتى كانوا يقولون: "كم أنَّ" أي: تعب، "كم أنَّ موسى من لن". ! أي كم تعب موسى من لن، قالوا له: "لن تستطيع معي صبرًا/ لن تراني/ لن نؤمن لك" كم أنَّ موسى من لن! قالها له بنو إسرائيل: {لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ} [البقرة:٥٥]، حتى قال له الخضر: {لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} [الكهف:٦٧]، وقال له الله -عزَّ وجلَّ-: {لَنْ تَرَانِي} [الأعراف:١٤٣].

فهذه الـ "لن" القاطعة حينما استمع إليها موسى.. انظر هذه المعاملة بين الله -عزَّ وجلَّ- وبين عبده، الذي بذل لنصرة الدين، كان ممكن أن يقول له: "لن تراني" والآية تنتهي، ولكنه قال: {لَنْ تَرَانِي} [الأعراف:١٤٣] ، {يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا} [الأعراف:١٤٤]، ارضَ بهذا، لكن هذه التجربة التي أرادها الله -عزَّ وزجلَّ- لموسى ليطمئن موسى، كما فعل مع إبراهيم -عليه السلام- قال: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى} [البقرة:٢٦٠]، كان ممكن أن يقول له الله: "أنا أُحيي الموتى" وينتهي الأمر، لكن قال: {فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ

عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا} [البقرة:٢٦٠]، جعله يخوض تجربة متعبة لذلك كانت الآية: {وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[البقرة:٢٦٠]، وكأن فيها لمحة عتاب والله عزيز حكيم.

فهنا {قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ}[الأعراف:١٤٣] ، لما استمع موسى إلى الكلام طلب الرؤية، ولما ناظر إبراهيم النمرود طلب الكيفية {أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى}[البقرة:٢٠٦] ، ولكن النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما أعرج به إلى السماء، قال ربنا عنه: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى}[النجم:١٧]، لم يطلب شيئًا -صلى الله عليه وسلم-.

كان وقَّافًا -صلى الله عليه وسلم-، وأقصى ما فعله -صلى الله عليه وسلم- حينما تمنى شيئًا كان يقلب نظره في السماء، {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} [البقرة:١٤٤]، -صلى الله عليه وسلم-.

لذلك هناك مقامات في الدين نحن نتكلم عنها هي عالية، نحن ننظر إليها، فانظر إلى هدي نبينا -صلى الله عليه وسلم-، وكيف أنه ارتضى هذا المقام.

لذلك هنا يوجد ملمح هام في قضية تربية النفس وهو أن ترضى بنعم الله لك، حتى في الثغر الديني وليس فقط النعم الدنيوية، لذلك قال بعض أهل العلم: {وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ} [النساء:٣٢] ، قالوا: هذا في النعم الدنيوية والنعم الدينية!

ولكن كيف لا أتمنى نعمة دينية؟ لأن أحيانًا يكون هذا طمعًا أنت تعلم أنك لست مؤهلًا لها، أنت فتح لك في ثغر معين، فتمني خالد بن الوليد أن يكون مثل ابن عباس، هذا لن يحدث فليرضَ بثغره وليبدع فيه، ثم ليتعلم من ابن عباس، ثم ابن عباس ليبدع في ثغره وينتج في ثغره، ثم لينصر خالد، فالقضية ليست تناطحًا وتنازعًا بين هذه الثغور، فلترضَ بثغرك!

لذلك قال الله ربنا -سبحانه وتعالى- بعد أن جعله يخوض هذه التجربة قال له: {فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ}[الأعراف:١٤٤] ، ارضَ بثغرك، ارضَ بما أعطيتك، أعطيتك الكلام فارضَ به لا تطلب أكثر من ذلك، لا تطلب ما لا طاقة لك به.

كثير من المفسرين قالوا: "لا تطلب ما لا طاقة لك به" أنت لا تستطيع الرؤية! فلا تطلبها، أنت تستطيع سماع هذا الكلام، واصطفيتك بهذا فلترضَ بهذا الاصطفاء، ثم تعمل في ذلك {خذ ما آتيتك}[الأعراف:١٤٤].

لكن أنا أريد أن أكون أعلى! إذا أردت أن تكون أعلى فخذ ما آتيتك بقوة، أي تعمل فيما آتيتك، مش تطلب غيره، لذلك قال له ربنا -سبحانه وتعالى-: {فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف:١٤٤]، ثم قال بعدها: {فخذها بقوة}[الأعراف:١٤٥] هذا هو المطلوب منك!

فقال: {قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ} [الأعراف:١٤٣]، أن يرضى الإنسان، ممكن أن يسأل أحدهم فيقول إن سيدنا إبراهيم لما رأى الطير أو سيدنا موسى لما رأى الجبل، هل هو وصل لمرتبة أعلى؟

النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يطلب هذه الطلبات، كان أظن شيخ الإسلام ابن تيمية قد أشار إلى الفارق بين الصديق والفاروق، حينما تقرأ في الصحيح تجد أن كثيرًا من الأحاديث التي فيها رؤى سواء رآها الشخص أو رؤيت له كانت لعمر بن الخطاب وليست للصديق، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يرى رؤى فيها سيدنا عمر كانت أكثر مع من؟ مع سيدنا عمر، سواء القصر أو اللبن الذي أعطاه يشربه أو غيرها كانت مع عمر بن الخطاب وليست مع الصديق.

فقالوا كيف تكون الرؤى أغلبها مع الفاروق عمر وليس مع الصديق؟ فأظن كان شيخ الإسلام الذي قال: "إن الصديق هو صدق لا يحتاج إلى تثبيت بالرؤى" الرؤى كانت للتثبيت وهو لا يحتاج إلى ذلك! هو صدق لذلك سُمي الصديق، هو لا يحتاج إلى مثل هذا.

فأحيانًا الكرامة لا يشترط أن تكون الكرامة تأتي للأفضل مطلقًا، قد تأتي الكرامة للتثبيت، فهناك من هو ثابت لا يحتاج إليها هو لا يحتاج، أحيانًا الكرامة تأتي للتثبيت، وأحيانًا تأتي لبيان فضله، فأحيانًا شخص هو ثابت هو راضٍ هو الصديق -رضي الله عنه-.

فالشاهد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يحتج إلى ذلك -صلى الله عليه وسلم-، وكان موقنًا -صلى الله عليه وسلم-.

فقال: {قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ} [الأعراف:١٤٣]. تجد هنا الأمل يتجدد، ما الذي سيحدث؟

{وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ}، ثم أنت تنظر إلى الجبل مع موسى -عليه السلام-، انظر إلى الجبل واختيار الجبل فهو أقوى وأقسى وأعظم مخلوق تراه أمامك الجبل، يُضرب مثلًا للثبات تقول كالجبال، {انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ} "فإن" و"إن" تستعمل للتقليل والشك، فموقعها في البداية يعني كأنه لن يثبت.

{فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي}[الأعراف:١٤٣] ، أي: أنت لا تستطيع يا موسى أن تتحمل بطبيعتك البشرية في هذه الحياة، لا تستطيع أن تتحمل أن يتجلى لك الله -سبحانه وتعالى-، وسأثبت لك ذلك، {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ} [الأعراف:١٤٣].. روي في الآثار -حسنَّه بعض أهل العلم وضعفَّه بعض أهل العلم- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أشار بإصبع الإبهام عند الخنصر بمقدار كأنه عقلة من الأصابع هكذا مقدار التجلي، أيًّا كان صح أو لم يصح فإن التجلي كان بسيطًا.

{فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ}[الأعراف:١٤٣] أريدك أن تعايش المشهد أنت الآن ترى الجبل! هذا الأمر حدث حقيقةً، حقيقةً! {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا}، وفي قراءة {دكاء} قالوا الدكاء: الناقة التي لم يعد لها سنام، كأنه يوجد تسوية في الظهر، استوت الأرض، الله أكبر، مشهد تفجير جبل! في لحظة من لحظات التجلي -سبحانه وتعالى-!

{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [الأنعام:٩١]، حقًا نحن ننشغل بأسباب الدنيا ونغفل عن عظمته سبحانه وتعالى، تخيل أنت تعبد هذا الرب جل وعلا! أنت تنصر دينه! أنت جند من جنوده ثم تخاف! نغفل، نحن ننشغل بالأسباب الأرضية وننسى هذه العظمة!

حينما تقرأ هذا المشهد وتكرره تزداد العظمة، لحظة من لحظات التجلي {جعله دكا وخر موسى صعقا}[الأعراف:١٤٣]! مشهد مهيب فيه سكون، انفجار الجبل، ووقوع موسى على الأرض، ثم يترك في هذه اللحظة وأنت تشاهد هذا المشهد {وخر موسى صعقا} في هذا المشهد أنت تحتاج في هذه اللحظة أن تقول: {سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين}[الأعراف:١٤٣] ما يحدث في قلبك في *هذه اللحظات ثلاثة أشياء :*

١. شدة تعظيم الله.
٢. شدة إحساسك بالتقصير.
٣. شدة أن تريد أن تسارع في الخيرات.

{سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين} [الأعراف:١٤٣] ، هذا ما يجنيه الإنسان من التدبر في عظمة الرب -سبحانه وتعالى-، بمدى عظمة الرب، ومدى تقصيره، ثم يريد أن يسد هذا النقص، أن يقترب منه -سبحانه وتعالى-، فقال كثير من أهل العلم أول المؤمنين بمعنى المبادرة!

يريد أن يكون الأول، في الصف الأول في كل شيء في الصلاة والجهاد، يريد أن يكون من الأوائل في الدين، لا يسأل عن المكروه والحرام والسنة، بل يكون من الأوائل، إذًا كثير من ضعف الهمة الذي نجده في قلوبنا وأبداننا يعالج بمعرفة عظمته -سبحانه وتعالى-!

أن تعلم مدى عظمته -سبحانه وتعالى-، ومهما فعلتم {ما قدروا الله حق قدره}[الأنعام:١٩١] ، لكن هذا يجعلك تنطلق، حينما تقف بين يديه في قيام الليل لا بد أن تعلم وأنت راكع وأنت ساجد، سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، أن تردد هذه المعاني في جوف الليل، أن تستحضر عظمة الخلق لتصل إلى عظمة الخالق -سبحانه وتعالى-، لا بد أن تقضي أوقاتًا في هذا حتى تبني هذا القصر من عظمة الرب في قلبك، حتى يكون ثابتًا كالجبال في قلبك عظمة الرب -سبحانه وتعالى-.

فلما أفاق قال هذه الكلمات: {قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين}[الأعراف:١٤٣] ، وإن كان كثير من المفسرين قصر هذه المعاني على معنى الرؤية، سبحانك أنزهك عن الرؤية في الدنيا، تبت إليك من هذا الطلب، وأنا أول المؤمنين أنك لا تُرى في الدنيا، وأنا أرى أنه قصر للمعنى، فالمعنى أكبر من ذلك!

قال سبحانك! قال سبحانك! لها طعم مختلف بعد هذا المشهد، وليس الخبر كالمعاينة، ونحن نقرأ هذا الكلام ونصدق كلام ربنا فكأننا رأيناه، فتقول سبحانك تبت إليك!

كثير من المعاصي قد تُترك بمشهد مثل هذا، ضعف العزيمة يُعالج بمشهد مثل هذا، سبحانك تبت إليك أنا مقصر، أنا معترف أني مقصر وأني أراوغ، تبت إليك وأنا أول المؤمنين، قررت أني أنطلق وأنا أول المؤمنين.

فقال له: {يا موسى إني اصطفيتك} [الأعراف:١٤٤] تعظيم، إحساس بالتقصير، الإقبال، فيأتي الاصطفاء، {إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي}[الأعراف:١٤٤] ، الاصطفاء تكليف وليس مجرد تشريف فخذ ما آتيتك.

{يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين}[ال عمران:٤٢].. {يا مريم اقنتي}[ال عمران:٤٣] لا بد من تعب و مجهود، الاصطفاء معناه تكليف، الاصطفاء أصلًا اصطفى افتعل من الصفوة، صيغة افتعل، فأصل كلمة اصطفى اصتفى بالتاء، لكن لقرب الصاد من الطاء أصبحت اصطفى على وزن افتعل، هذا خلاصة الخلاصة؛ الصفوة، هذا معنى الاصطفاء.

{إني اصطفيتك على الناس}[الأعراف:١٤٤] بماذا كان الاصطفاء؟ لا بمال ولا بدنيا ولكن برسالاتي وبكلامي! عجبًا لمن آتاه الله القرآن وهو يحقر هذه النعمة ثم ينظر إلى نعيم الدنيا.. {ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم * لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا } [الحجر:٨٧,٨٨] ، (ليس منا من لم يتغنَ بالقرآن)[٥] في أحد المعاني ليس منا من لم يستغنِ بالقرآن عن غيره، تأويل ابن عيينة واختيار البخاري، أن تُقبل على كلامه –سبحانه وتعالى–.

{قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي}[الأعراف:١٤٤] الاصطفاء بالكلام ونحن نعرض عن كلامه! برسالاتي وكلامي، {فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين} ارضَ، ارضَ بهذا ولا تطلب غيره، {فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين} [الأعراف:١٤٤]

ثم {وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين} [الأعراف:١٤٥].

لقد أطلنا الدرس اليوم، المرة القادمة إن شاء الله نتكلم في مسألة ما معنى {من كل شيء}؟ ثم لماذا قدم الموعظة على التفصيل فقال: {من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شيء} ولم يقل من كل شيء تفصيلًا؟ لماذا جاءت الموعظة قبل التفصيل؟ ولماذا لم يقل فخذ أنت وقومك هذه الآيات بقوة قال له أمر خاص خذها بقوة ثم أُمُر قومك يأخذوا بأحسنها؟ ليس كل ما يؤمر به الداعية يؤمر به الناس، أحيانًا ينفرد الداعية بأشياء معينة، والخلاف في قوله –سبحانه وتعالى– {سأوريكم دار الفاسقين}[الأعراف:١٤٥]

نكتفي بهذا القدر.

---

[٥]- [عن عبدالله بن أبي مليكة:] ليس منّا مَن لم يَتَغَنَّ بالقرآنِ قال: فقلتُ لابنِ أبي مُلَيْكَةَ: يا أبا محمدٍ ! أرأيتَ إنْ لم يكنْ حسنَ الصوتِ؟ قال: يُحَبِّسُه ما استطاعَ.
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترغيب ١٤٥١ • صحيح

نسأل الله –عز وجل– أن يستعملنا لنصرة دينه ولا يستبدلنا، اللهم استعملنا ولا تستبدلنا، اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.